



الحيوان للجاحظ

تحقيق وشرح الأستاذ عبد السلام محمد هارون

للاستاذ عبد المنعم خلائف

أقدم عملاً عظيماً في لون من ألوان الأدب المصري لم يوجد إلا بعد أن وجدت الطبعة، ووجدت بحوث المستشرقين وفن إخراج الكتب

وهو عمل يتصل بالعلم بما فيه من التحقيق وتحرير النصوص، ويتصل بالأدب بما فيه من ملكة التذوق والترجيح واستفتاء الثقافة الأدبية والاعتماد على المحفوظ المذكور من نصوصها، ويتصل بالفن بما فيه من تنسيق وتبويب وإخراج جميل يروع ويجذب العين واليد إلى الكتاب

وكاد هذا العمل يكون خاصة موقوفة لأقلام علماء المشرقيات الأجانب لولا نفر قليل من المشاركة أنفسهم ساهموا بأقلامهم

في هذا العمل للثناغ القيم الذي هو في الحق ميلاد جديد للكتب القديمة تهتز له عظام مؤلفيها القدامى غبطة بنسهيل الانتفاع بما تركوا من آثار جلييلة قد يذهب بما فيها من الفائدة عند شباب هذا الزمان أنها ألقت على غير ما ألفوا من الكتب الحديثة اللبوة التي يملن فيها كل مبحث عن نفسه في سهولة واقتراب إلى الأذهان التي لم تتعود للصبر والجلد على التعرف إلى الآثار القديمة لاقطاع الأسباب وبعد الزمن وتغير الأساليب وكثرة الملامح وحب السرعة، ومرضى الهمة وكلال المزمنة

وإذا أقدم هذا العمل العظيم أشعر في نفسي بفتنتين: الأولى غبطتي بمت مكتبة الجاحظ أديب العربية العباسية الأكبر، ووارث علوم علمائها وأدب أدبائها وخفة ظرفائها، وسجل دنياها الزاخرة، ومصور حياتها التشعبية، بعث فيه من الجدة والفن والطرافة ما يخيل إلينا أنها انحصرت عنها قريحة مفاصرة

والثانية غبطتي بأن هذا البعث كان على يد صديقي الثابت الصليح الأستاذ عبد السلام محمد هارون الذي أحرقه كما أعرف

الغذ، وأوقع الجواب عنها . فمسي الأحرار أنوارك البديدة للظلمات، وأختم كلتي هذه بالشكر ثانية لأيدائك البيض كما بدأتها به . (الأب أنستاس ماري الكرملي)

... قال الفروي العلامة الأب أنستاس ماري الكرملي، أن يتفضل على قراءة الرسالة بنشر ما قد يكون وصله من جواب الرائي على هذه المسائل

والى الفويين من قراءة الرسالة أن ينشروا على القراء رأيهم في جواب هذه الأسئلة، وإلى النقدة من كتاب العربية أن يقرحوا هذه الرسالة لهم يجدون فيها مثلاً في أدب النقد وفي صفحات الرسالة متسع إن أذن الأستاذ الزيات .

محمد سعيد السبيح

من الجزء الثاني: (في تحقيق ناموس)؛ وقد تكررت الكلمة مفردة ومجموعة. وكنت أظن أن العرب لم تعرف هذه الكلمة بمعنى (السنة) وإنما جاءت بيمان آخر مذكورة في دراوين اللغويين. أما الناموس بهذا المعنى (أي بمعنى السنة) فقد أدخلها (النصارى) العرب منذ صدر الإسلام لوجودها في التوراة والإنجيل بهذا المعنى. وكذلك تراها مثبتة في كتب المنطق والفلسفة والطبيعة والطب واللاهوت وما وراء الطبيعة؛ لكن فصحاء المسلمين لم يحقوها ولم يقروها في أسفارهم ولا في معاجمهم، فهل وجدتها بهذا المعنى في الدواوين القديمة في غير ما أشرت إليه من التصانيف؟

... هذه بعض أسئلة - وليس فيها شيء من النقد، معاذ الله - وقد خطرت ببالي وأنا أتألف بتصفح هذا السفر

اللقب الأسرة ، ولا يرضي أن يذهب فكر الفارسي شامعاً وبدداً هنا وهناك وقت القراءة .

وعلى ذلك كل عمل يرشد الفارسي الجديد إلى ما يبحث عنه في بطون الأسفار القديمة رأساً بدون اضطرابه إلى الخوض في بحر لا ساحل له، وفي مباحث لا حاجة له إليها، فهو عمل من أعمال ما يربط أسباب الجديد بالقديم ويجلو الدرر المدفونة بين طيات الكتب التي فيها كثير من الحما والثراب .

وقد قدم الأستاذ هارون « مكتبة الجاحظ » التي « سيميل جهده على إخراج ما يمكن منها بمون الله مأمده في الحياة » تقديماً بديعاً يتحدث فيه عن بيان الجاحظ وعصره والتأليف في رد ومؤلفات الجاحظ ومنحاه في التأليف وقيمة كتبه في نوادي الأدب وذروعها ووراثتها . وقد أتى في هذا الحديث بفوائد ممتعة .

وقد قدم كذلك كتاب الحيوان تقديماً خاصاً مرض فيه لمنشأ التأليف في الحيوان عند العرب ولمراجع الجاحظ في تأليف كتابه من القرآن والحديث والشعر العربي وكتاب الحيوان لأرسطو ومحاولات المتزلة وجدالهم فيما بين أيديهم من ألوان المعارف جليلها ودقيقتها ؛ ثم الجهود الشخصية للجاحظ وولوعه بمباحث الحيوان ولو ما حمله على أن يجالس الملاحين وصاندي المصافير والحوائث وغيرهم من القامحين على شئون الحيوان . وهو لعمري الحق يبحث في غاية التفاسر وفي صميم الأدب الأصيل انتهى إليه الأستاذ هارون ابتداء ، لم يسبقه إليه سابق فيما أعلم . ومن المباحث القيمة أيضاً في هذا التقديم تحقيق زمن تأليف الجاحظ للحيوان وتبيين قيمة كتاب الحيوان بما فيه من المعارف الطبيعية والمائل الفلسفية وسياسة الأقسام والأفراد ونزاع الطوائف ، والمائل الجغرافية وخصائص الأجناس وقضايا التاريخ وأحداث الطب والأمراض والمفردات الطبية ، وأحوال العرب وعلومهم ومزاعمهم ، ومسائل كثيرة في الفقه والدين ، مضافاً إلى ذلك كله فكاهة الجاحظ الساخر ، أو قلته الشرح — كما لقبه الأستاذ الزيات — واختياره للصفوة المختارة من حر الشعر العربي ونادره . . . إلى آخر ما تمتاز به مؤلفات أبي عثمان البحر . . .

« وبمد » فظرة واحدة إلى صفحة من صفحات الكتاب بصليها وهامشها تفق الفارسي مباشرة على مقدار الجهد النيف الذي بذله الأستاذ الصبور محقق الكتاب ، في ضبط الألفاظ

فسي إذ كان صدق الأول وصنوي في عهد الدراسة المزري وأخشى أن يحسب حاسر أنه قد طغى ونوق بهذه الشخصية وحي لها على تقدير عملها في « الحيوان » تقديراً بعيداً عن التلو، كما أخشى أن يظن ظان أن الأمر في هذا التقديم مرجعه إلى « تويط » الصداقة وتقريب الأصدقاء بعضهم بعضاً . وحسب ذلك الحاسب وهذا الظان أن يرجعنا إلى الجزء الذي طبع من الحيوان ليرى المجهود فيعرفنا الشخص الذي بذله كما عرفته أنا منذ خمس عشرة سنة أديباً متصللاً بصميم الأدب العربي مقلباً يده وعينه في مراجعته القريبة والبعيدة ممتاناً من سحر نصوصه .

وإذا كنت أنتمور ساس وتقدر بما يبذل فيها من مجهود نتيجة النافعة فأظن أن مافي المطبوعة الحديثة من الحيوان من التحقيقات وتحرير النصوص وفهارس المعارف وأجناس الحيوان وأعلامه وأعلام الناس والقبائل والطوائف والبلدان والأماكن والأمثال والشعر والأرجاز واللغة والكتب وأيام العرب ، أظن هذا كله عملاً أشق وأنفق من كثير من الكتب التي يرسلها مؤلفوها إرسالاً سهلاً . وأظن أنه يستتبع تقدير صاحبه تقدراً يرضى به نفسه . وقد صار العلم الآن بما في الكتب القديمة سهل المورد بأمثال هذه الفهارس التي تنفض مافي الكتب نفصاً ، وتمان عن كل كلمة فيها إعلاناً هريصاً يأخذ بسيون الباحثين إلى ما يلقون من الأشباه والنظائر والمختلفات ، مما يوفر عليهم الجهد والوقت والاستذكار ، حتى لقد شاعت هذه الكلمة « إن العلم الآن معرفة مافي الفهارس »

وقد ابتدع الأستاذ هارون فهرساً قياً لما في الحيوان من المعارف التي وضع لها هو أيضاً عنوانات فصلت أثناء الكتاب ، وهو لون طريف في التعريف بما ورد في الكتاب - شوا في غيره ، مما قد يمر عليه الفارسي عفواً بدون ترقب ولا تعقب ؛ وهو عمل عظيم في كتب شأن مؤلفيها الاستطراد وإلقاء مافي الداكرة متى حضر ولم بدون مناسبة قريبة ، وإنما هو جود الداكرة والأوائل كانوا على رأي في الأدب هو أنه اللام من كل شيء بطرف ، وتلك كانوا يخرجون كتبهم الأدبية إخراجاً يرضى هذا التعريف . فكانت كتبهم الغالبة أشبه شيء بمحدث المجالس وأمالها . غير أن هذا اللون من التأليف نبا عنه الدوق المصري الذي لا يرضى من المعارف إلا ما كان قصائل وأجناساً مضموناً بعضها إلى بعض ممتزة بمنومات تضم الشتيت كما يضم